الانساق الضدية في شعر مالك بن الريب

أ.م.د.بشائر أمير عبد السادة الفتلاوي
alftlawybshayr@gmail.com
كلية التربية للعلوم الانسانية/جامعة بابل/قسم اللغة العربية

ملخص البحث:

تسعى الدراسة للإفادة من النقد الثقافي لبيان الرؤى العميقة والمضمرة في شعر مالك بن الريب، واستجلاء الدلالات البعيدة في صراع الشاعر مع الوجود المتمثل بإنسانيته وقيمه وزمانه ومكانه، فالنقد الثقافي يعنى بالنصوص الادبية ويسعى إلى تحليلها مستنداً إلى سياقها الثقافي والاجتماعي والسياسي، فيتمركز عمله حول مساءلة الثقافة و انساقها المضمرة والظاهرة مع العناية بقصدية الخطاب ورؤية المؤلف مبدع النص ،وقابلية القارئ في تلقي النص الادبي عبر استنطاقه وبيان كوامنه القابعة خلف مقصدية مؤلف النص وسياقه، فكل نص هو رهين التغيرات الفكرية والثقافية والسياسية في المجتمع، لذا سنحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على الأنساق الضدية في شعر مالك بن الريب، وقد قسم البحث إلى مجموعة مطالب منها :مطلب نظري تمثل في :1- مفهوم الانساق الثقافية، 2-وظيفة الانساق الثقافية، ومطلب تطبيقي تمثل في:1- الانساق المتضادة على المستوى الموضوعي،2- الانساق المتضادة على المستوى الفني ،ومن ابرز النتائج التي تمخض عنها البحث : ان رؤية الشاعر وثقافته تصادمت مع رؤية وثقافة المجتمع مما ادى إلى نشوء انساق متضادة تمثلت عبر صراعه مع الآخر متمثلاً بالسلطة فنشأت عنها جدلية الهامش والمركز ،ومع قيم المجتمع ونظمه، وصراعاً آخر مع المكان والزمان .

كلمات مفتاحية: الانساق المتضادة، النقد الثقافي، مالك بن الريب.

Reflexive Patterns in the Poetry of Malik bin Reap

D. Bashaer Ameer Abdul Sada al-ftlawy
the department of Arabic language/ College of Education for Human Sciences/
University of Babylon
Babylon/ Iraq
alftlawybshayr@gmail.com

Summary of research: The study seeks to benefit from cultural criticism to show the deep and embedded visions in the poetry of Malik bin Al-Rib, and to clarify the distant indications in the poet's struggle with the existence of a

human being and his values, time and place, cultural criticism is concerned with literary texts and seeks to analyze them based on their context. Cultural, social and political, his work is centered on the accountability of culture and its embedded and apparent patterns with care for the purpose of the speech and the vision of the author creator of the text, and the ability of the reader to receive the literary text through his interrogation and the statement of his co-authors behind the purpose and context of the author of the text, each text is subject to intellectual changes. cultural and political in society، Therefore, we will try to highlight the opposite patterns in the poetry of Malik Bin Al-Rib, and the research has been divided into a set of demands, including: 1- The concept of cultural formats, 2- the function of cultural formats, and a practical demand represented in: 1 - opposing patterns at the objective level,2 - formats The conflict at the technical level, and one of the most prominent results of the research: that the vision of the poet and his culture collided with the vision and culture of society, which led to the emergence of opposing patterns represented through his conflict with the other represented by power, resulting in the dialectic of the margin and the center, and with the values of society and its systems, and another conflict with the place And time. Keywords: Opposing Formats, Cultural Criticism, Malik Bin Al-Rib.

المحور النظري:

مفهوم الأنساق الثقافية: -

تعرف الانساق الثقافية في النقد الثقافي بانها انساق دلالية، تتجلى في مضمون النص الثقافي وحمولاته[1] ولها القابلية على بلورة منطق التفكير الفني والجمالي في النص، وتعمل على تحديد الابعاد والخلفيات التي تعتمدها الرؤية ،وهي عند ميشيل فوكو (*Michel Foucault*) علاقات ،تستمر وتتحول، بمعزل عن الاشياء التي تربط بينها[2]

ويؤكد الانثروبولوجي المعاصر كليفورد غيرتز (Clifford Geertz)،ان مفهوم النسق الثقافي يتجلى في نتاج حقلين اساسيين هما الانثروبولوجيا والنقد الحديث، ووجه كليفورد بحثه نحو النظر الى الانظمة الاجتماعية الحاكمة للأفراد والجماعات بوصفها انساقا ثقافية[3]، والنسق الثقافي لم يستعمل في النقد الثقافي فقط ،فقد سبق وان وظفه عالم اللسانيات فرديناند دي سوسير (Ferdinand

de Saussure) في تعريفه للغة بقوله: ان اللغة ((نسق من العلامات يعبر عن الافكار ،ولهذا فهي مشابهة لنسق الكتابة وابجدية الصم والشعائر الرمزية وصيغ المجاملة[...]ولكنها اعظم اهمية من هذه الانساق))[4].

ويمثل النسق نظاماً ((ينطوي على استقلال ذاتي يشكل كلاً موحداً ، وتقترن كليته بآنية علاقاته التي لا قيمة للأجزاء خارجها، ولكل أثر أبداعي نسق يميزه عن أثر أبداعي آخر))[5]،فمفهوم النسق قريب من مفهوم البنية التي تتشكل على وفق نظام معين وارتباط ذاتي يفضي الى اي تغيير في اجزاءه الى تغيير في النسق ذاته.

اما عند النقاد العرب ،فنجد ان الغذامي اول من عرض النسق بوصفه مفهوما مركزياً في مشروعه النقدي، إذ اكسبه قيماً دلالية وسمات اصطلاحية خاصة، فعدّه أداة وآلية للنقد الثقافي[6].

والنسق بوصفه دلالة مضمرة فان هذه الدلالة لا تعدّ نتاج مؤلف ، بل هي منغرسة في الخطاب ،مؤلفتها الثقافة ،اما مستهلكوها فهم جماهير اللغة من كتاب وقراء ،ولا فرق في طبيعة الجمهور هنا ان كان كبيراً او صغيراً ،رجلا او امرأة، مهمّش او مركز، فكلهم في مرتبة واحدة[7].

وعلى وفق ما تقدم فان مفهوم النسق الثقافي هو: مصطلح تولد من التقاء مفهوم النسق مع مفهوم الثقافة وهو يشمل النظم الاجتماعية والدينية والثقافية المتفاعلة فيما بينها والتي يكتسبها الانسان في مجتمع ما ، وهي ذات صلة وثيقة في إنتاج اي خطاب ابداعي كان أو فكري[8].

2- **وظيفة الانساق الثقافية:** حدد الغذامي مجموعة مواصفات للوظيفة النسقية وهي :

1- نسقان يحدثان معاً وفي نص واحد أو ما هو في حكم النص الواحد.

2- ان يكون النسق المضمر مضادا للنسق الظاهر والعلني ،فأن لم يكن كذلك فلا يدخل النص في مجال النقد الثقافي.

3- ان يتسم النص بالجمالية ،بوصف الجمالية اخطر حيل الثقافة في تمرير انساقها.

4- لابد ان يتسم النص بالجماهيرية ،وان يحظى بمقروئية عريضة، لكي نرى ما للانساق من فعل عمومي ضارب في الذهن الاجتماعي والثقافي[9].

وعلى وفق ما سبق من تعريف للانساق الثقافية وماهية الوظيفة النسقية، اتضح لنا بشكل جلي ان النقد الثقافي يعنى بقراءة الانساق المضمرة وتحليلها ، ولما يضمه شعر مالك بن الريب من انساق ضدية مضمرة ،بوصفه شاعراً مهمشاً استطاع بافعاله واشعاره ان ينزاح عن السلطة المركزية(السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية)،الرافضة لكل متمرد وخارج عنها، ارتأينا ان نعتمد

على النقد الثقافي كمنهج نقدي في تحليل نصوصه الشعرية ،والوقوف على الانساق الضدية منها ،لأهميتها في الكشف عن حقبة زمنية تسلطت بها القوى الحاكمة على الشعب بشكل متعسف مما دعا الى نشوء شعراء تمردوا على الوضع الراهن ،رافضين قيم المجتمع وقوانينه ،وقيم السلطة الحاكمة وانظمتها ،وكان مالك بن الريب احد هؤلاء الشعراء ،اذ خرج عن نظم المجتمع وقوانيه ليؤسس لنفسة منظومة قيمية واخلاقية ليثبت بها نفسه المهمشة امام السلطة المركزية وقيم المجتمع واعرافه فتنوعت بذلك انساقه المتضادة والمتصارعة مع الآخر ،لذا سنحاول في المحور التالي بيان هذه الانساق عبر قراءة وتحليل نصوصه الشعرية.

المحور التطبيقي:

اولاً: الانساق الضدية على المستوى الموضوعي:

تجلت الانساق الثقافية الضدية على المستوى الموضوعي في شعر مالك بن الريب في صور عدة منها:

1- **صراع الأنا مع الآخر – السلطة المركزية :** تمثلت السلطة السياسية في العصر الاموي بالتسلط والهيمنة وخضوع اغلب القبائل العربية لها ،مما حدا ببعض الافراد المعتدين بأنفسهم الخروج عن دائرة السلطة عبر فعل التمرد والرفض لسياستها وقوانينها وانظمتها المستبدة ،وكان مالك بن الريب من الشعراء الفرسان المتسمين بالقوة والعزيمة والاصرار الذين لا يحتملون حالة الخنوع والاستسلام لذا تمرد على واقعه الراهن ،ليؤسس لنفسه انا معتدة بنفسها لها عالمها الوجودي الخاص لا تأبه لسلطة الآخر ومركزيته بل انها تحاول بشكل او بآخر زعزعة كيانه ووجوده ،قال الشاعر معترضاً على سلطة بني مروان ،متحدياً لها :

فـــانْ تُنْصِـــفُونا يـــا آل مـــروانَ نقْتـــربْ ... إلـــــــيكُمْ وإلاّ فَـــــــأْذَنُوا بِبِعـــــــاد
فـــإنَّ لنـــا عـــنكُمْ مزاحـــاً ومَـــرْحَلا ... بِعِـــيْسٍ إلـــى ريـــحِ الفَـــلاةِ صَـــوادِي
ففـــي الأرْضِ عـــنْ دارِ المذلّـــةِ مَـــذْهَبٌ ... وكُـــــلُّ بـــــلادٍ أَوطنَـــــتْ كـــــبلادي
فمـــاذا تَـــرَى الحجـــاجَ يبلـــغُ جُهُـــدُهُ ... إذا نحـــــنُ جاوَزْنـــــا حَفِيـــــر زيـــــاد
فلـــولا بنـــو مـــروان كـــان ابـــن يوســـف ... كمـــا كـــان عبـــداً مـــن عبيـــد إيـــاد
زمـــان هـــو العبـــد المقـــر بذلـــةٍ ... يـــراوح غلمـــان القـــرى ويُغـــادي[10]

يتشكل الخطاب من نسقين متضادين نسق (الانا المتعالية) ،ونسق (الآخر) السلطة المتمثلة بآل مروان، فتمرد الانا المتعالية وخروجها عن النسق العام جعلها تضاهي بقوتها قوة السلطة ،فاذا بها تتحداها لتشكّل بذلك نسقاً ضدياً موظفة الشرط المقترن بجوابه ممّا حتّم الإلزام والثبوت، فالذات

تشترط على (آل مروان) –السلطة والقوة- أن يعاملوهم بالإنصاف والعدل، فالشاعر يتخذ من افعال القوة والاعتزاز بالذات وعدم الرضوخ للسلطة قوة فاعلة تتغلب على قوة الآخر وبطشه.

ويأتي البيت الثالث ليمثل مرحلة التعويض بتلك السلطة وذلك المكان ،ونلمس فيه شيئاً من الكبرياء والحرية ،فالمكان المستبدل ليس بأفضل أو أأمن مما هم فيه فهو في القفار والفلوات التي يصدأ الكائن الحي من شدة العطش فيها، الا ان ذلك المكان يغني الشاعر عن المذلة والخضوع، ويأتي الشطر الثاني ليعبر عن مقدرة الشاعر في كسر النسق العام فبلاده ليست تلك البلاد التي ولد فيها وعاش حياته بل تلك التي يشعر فيها بحريته فمفردة اوطنت كبلادي عبّرت (عن إرادة الذات الشاعرة وقدرتها على اتخاذ القرار حتى في انتسابها إلى الوطن)[11].

ثم يوظف الشاعر النص الهجائي الذي يمثّل شكلاً ((من اشكال التمرد والثورة على القيم النسقية المشكلة للبنية الثقافية للمجتمع العربي القديم))[12] ،وايضا يكشف عن جدلية العلاقة بين الشاعر والسلطة الحاكمة ،فسخرية الشاعر من قوة الحجّاج ونفوذية سلطته -عبر وسمه بسمة العبد لأياد- عبّرت عن ذات متحررة رافضة لنسقية التابع والمتبوع التي اعتاد عامة الناس عليها، فالذات تحاول ايجاد وعي خاص بها حتى لا تنجرف نحو الآخر تحت مسمى قدسية السلطة الحاكمة والخوف من قوتها ونفوذها.

2- **صراع الأنا مع الآخر- القيمي:** ونقصد به خروج (الأنا) عن قيم المجتمع وعاداته وتقاليده ،وتأسيس قيم جديدة خاصة ،تحاول بها ضرب النسق العام واثبات هويتها المتمردة، ومن هذه القيم قيمة الصواب والخطأ أو (الحلال والحرام)،فالشاعر يتخذ من اللصوصية مهنة يتحدى بها قيم المجتمع والسلطة والدين ويسوغ لنفسه هذا الفعل على انه حق طبيعي ،وان الاموال ملك للجميع ،قال معبراً عن رؤيته مدافعاً عنها:

إنّا وجدنا طرد الهوامل
والمشي في البركة والمراجِلِ
خيراً من التأنان والمسائل
وعدة العام وعام قابل[13]

لم تعد الذات نسقاً مفرداً بل نسقاً جمعي يحاول أن يعبر عن قوته وإصراره في التغيير والخلق ،فالتمرد نابع من الذات بوصفها المركز لإحداث التغيير وعدم الرضوخ لقيم (الصواب والخطأ)، فمن وجهة نظره أن سرقة الإبل خير من مد اليد والاستجداء ،ونلمس في هذا القول نصاً مضمراً فهي لا تقصد الاستجداء من الناس ،وانما مدّ اليد للسلطة الحاكمة والرضوخ لها

حتى ترضى عنها وتمدها بالعطايا والاموال، فالنص يجسد حالة من الحركية والمواجهة والثورة على حالة السكون التي اتسم الآخرون بها ،تجاه الثابت السلطة محاولاً كسر هذا النسق عبر فعل الخطأ مؤسساً لنفسه رؤية خاصة ،ليثبت ان ذاته تأبى الرضوخ والاستسلام للآخر.

ومنها ايضاً قوله معتزاً بنفسه مفتخراً بأفعاله:

فــإنّي سَــوفَ يَكْفِيْنِيْــكَ عَزْمِــي ونــــصُّ العِــيْسَ بالبَلَــدِ القِفــارِ

ومنها :-

وأنيـــــابٌ ســــــيُخْلِفُهُنّ ســــيْفِي وشَــدّاتُ الكَمِــيِّ علــى التّجــارِ

فــانْ اسْــطَعْ أرِحْ مِنْــه أُناسِــي بِضَــربةِ فاتِــكٍ غَيْــرِ اعْتِــذارِ

وانْ يُفلــتْ فــإنَّي سَــوْفَ ابْغــي بَنِيْــهِ بالمدينــةِ أوْ صِــرارِ[14]

يتضمن النص انساقاً مضمرة تعلي من شأن الأنا وتجعل منها نسقًاً ضديًاً مهيمنًاً متسمًاً بالحركة والتعالي على الآخر ،ففخر الشاعر بقوته وشدة بأسه وسيفه وفرسه جاءت مضادة لما يمكن ان يفتخر به الفتى العربي ،فهذه السمات وسائل للتمكن من فعل اللصوصية وليست قيماً ممكن ان يعتز بها الانسان العربي ،الا ان رغبة الشاعر في التمرد واعلاء ذاته وضرب النسق العام جعله يفخر بما يشعر به الآخرون بالخزي والعار، فعدم انتماء الشاعر لمجتمعه وقيمه جعله رافضا لها متعاليا عليها عله بذلك يجد ذاته المهمشة ،فالهامشي ((هو فاعل اجتماعي يؤسس لثقافة خاصة ،ويبني هويته عبر تطوير حركة مضادة لحركة المهيمنين [...]فالثقافة المركزية تفرز من رحمها نقيضها الذي سيعيش على هامشها))[15]

نلحظ ان هذه السمات التي اتسم بها جعلته يرفض مهنة الرعي ويفضل عليها الفارس المقاتل، فسماته الشخصية شكلت نسقاً مضادا مع سمات الراعي الذي يجد في نسقه سمة الخضوع والاستسلام للآخر وعدم مقدرته على التغيير ،فبالنتيجة شخصية الراعي – على وفق نظرة الشاعر – محدودة التفكير تلتزم بالثابت ولا تسعى الى تغييره ،وهذه السمات مخالفة لسمات المتمرد الذي يسعى الى ايجاد بدائل تتلاءم مع فكره وحياته وطموحاته الرافضة للنسق الجمعي ،وخير ما يمثل كلامنا قول الشاعر حينما دعاه سعيد ابن عثمان الى العمل في رعي الاغنام :

وإنّــي لاســتحيي الفــوارس أنْ أَرى بِــأَرضِ العِدا بَــوَّ المَخــاضِ الــرَوائِمِ

وَإِنّــي لأَســتَحيي إِذا الحَــربُ شَــمَّرَت أَنِ ارخيَ دونَ الحَربِ ثوبَ المُسالِمِ

وَما أَنــا بِالنــائي الحَفيظَــةِ فــي الــوَغى وَلا المُتَّقي في السِلمِ جَرَّ الجَرائِمِ[16]

نلحظ ان سعيد بن عثمان لم يكن ببعيد عن رؤية الشاعر وشخصيته الا ان رغبته في درء شره والسيطرة عليه املت عليه ان يجذبه نحوه للعمل في الرعي ،الا ان شخصية مالك المتمردة والمتسمة بالشجاعة والقوة حالت من دون ذلك ،مما دفعه للاذعان له وجعله احد جنوده.

نلمس في النص روح مقاتلة وثابة لا تخشى الحرب و القتال، بل تخشى من نظرة الآخر لها ووسمها بسمة الجبن والخضوع ،فمهنة الرعي لابأس بها لمن اعتادها والفها الا انها شكلت نسقا ضديا لذاته الوثابة وروحة الابية .

3- **صراع الأنا مع الآخر - العاذلة:** يعكس خطاب العاذلة ((رؤية المجتمع فهي معادل نسقي لثقافة المجتمع في تعامله مع تمرد الشاعر))[17]، فالمجتمع مدرك للخطر الذي حلّ به ،الا انه آثر الرضوخ والاستسلام مما شكّل نسقاً ضدياً لتمرد الشاعر ورفضه لحالة البؤس التي يحياها نتيجة لتمركز الاموال بيد السلطة وعدم تمكن الآخرين من العيش بكرامة، قال الشاعر مصورا لوم عاذلته لنحول جسمه وشحوب وجهه:

وقــد تقــولُ ومــا تخفــي لجارتهــا إنــي أرى مالــكَ بــنَ الريــب قــد نَحَــلا

مـن يشـهد الحـربَ يصـلاها ويسـعِرُها تــراه ممــا كســته شــاحباً وجِــلاَ [18]

نلحظ خلف هذا النص نصا مضمرا رافضا لنسق العاذلة وبنيتها ، ليكون جوابه عبر نص مغاير لحقيقة مفرداته وتوظيفها ، فقول العاذلة كان له وقع نفسي كبير عليه لذا اخذ على عاتقه بيان سبب ذلك النحول متخذا من فعل الحرب نسقا مضمرا لبيان رؤيته تجاه سياسة بني امية وتحكمها بالمجتمع.

4- **صراع الانا مع المكان:** يشكّل المكان هوية الانسان وانتماءه اللامحدود لأرضه التي عاش على ثراها وتنعم بخيراتها، الا ان رؤية الشاعر المتمرد مختلفة عن رؤية الانسان العادي او لنقل عن رؤية النسق الجمعي الملتزم بالثابت الذي لا يحيد عن قناعته ،وان اتسمت حياته بالذلة وعدم الامان ،فصراع الشاعر المتمرد صراع متمثل بمبادئه التي يجد فيها نفسه الابية غير المنصاعة للآخرين ،وهويته الحرة المقاومة للثابت ،لذا نجده يلجأ الى الفلوات الى المكان الطبيعي ذي الفضاء الواسع الذي لا تتحكم به سلطة او نفوذ ،لذا الف مالك بن الريب الصحراء الواسعة، قال معبراً عن رؤيته:

أَحَقّــاً عَلــى السُـلطانِ أَمّــا الّــذي لَــهُ ... فَيُعطـــى وَأَمّـــا مـــا يُـــرادُ فَيَمنَـــعُ

إِذا مـــا جَعلــتُ الرَّمــلَ بَينـــي وَبَينَـــهُ ... وَأَعــرَضَ سَــهبٌ بَــينَ يبــرينَ بَلقَــعُ

مِــنَ الأَدمـــى لا يَســتَجِمُّ بِهـــا القَطـــا ... تَكُـــلُّ الرِيـــاحُ دونَهـــا فَتَقَطّـــعُ[19]

يسعى الشاعر المتمرد الى مكان خال من تحكم وتسلط الآخرين ،ولا يهم كيف يكون لذا يكشف النص عن مكان واسع لا ماء فيه ولا حياة ،وهنا ينشأ الصراع بين المكان الثقافي ← السلطة المتحكمة اللاانتماء ، وبين المكان الطبيعي ← الحرية والرغبة في الانتماء، الا ان هذا الانتماء يصاحبه التشرد والعوز في سبيل تحقيق وجوده الانساني الحر.

5- **صراع الأنا مع الزمان (الموت) :**تتجلى قيمة الزمان لدى الانسان عند الموت ،عند مواجهة الانسان لحياته الماضية وكأنها صور تتراءى عبر ذاكرته واحدة تلو الاخرى، فالموت لا يعدّ مصيرا لإنسان انتهت حياته فقط وانما هو فكرة وفلسفة حياتية تتجلى عبرها احلامه وآماله وذكرياته ،ومن هنا ينشأ الصراع ويشكّل نسقا ضديا له، قال الشاعر يرثي نفسه:

لَعَمْـري لـئن غالـتْ خُراسـانُ هـامَتي ... لقـد كُنْـتُ عـن بـابَيْ خراسـان نائيـا

ومنها قوله :

تَـذَكّرْتُ مـن يَبْكـي علـيّ، فلـمْ أَجِـدْ ... سِوَى السَـيْفِ والـرّمحِ الرُّدَينـيّ باكيـا

وَأَشْـــقَرَ خِنْذِيـــذٍ يَجُـــرّ عِنَانَـــهُ ... إلـى المـاء، لـم يتْـرُكْ لَـهُ الـدهْرُ سـاقيا

يصدمنا النص ببنية مغايرة لبنية مالك بن الريب المتمرد الذي نأى عن موطنه الى الفلوات ليجد حريته المسلوبة، فالمكان الحالي (خراسان) تعلي شأن الشاعر وتلبي مطالبه الا ان هاجس الموت ولّد لديه شعورا بالألفة نحو موطنه الاصلي، الذي احدث ابتعاده عنه اغترابا روحيا ومكانيا ،فترحاله المستمر وسلوكه الضدي تجاه الآخر الجمعي لم يجعل له رفيقاً يبكيه ويشاركه آخر ايامه، الا السيف والرمح والفرس الضامرة، موظفا الاستعارة المكنية مشبّها اياهم بالإنسان في صورة تحمل في طياتها نسقا مضمرا يحاول به ان يظهر المه وقلة حيلته.

ثم يتصارع الشاعر مع الزمن (الموت) ليرى مالم يستطع رؤيته ويتمتع به في حياته وهم اهله ومحبيه عبر رؤيته لـ (نجم سهيل) اذ مثّل رمزا موحيا لمكان اهله واحبته ،وقد تمثل ذلك بقوله.

وَلَمّـــا تَـــرَاءَتْ عِنْـــدَ مَـــرْوٍ مَنيّتـــي ... وَحَـــلَّ بِهَـــا جِسْـــمي، وَحَانَـــتْ وَفَاتِيـــا
أَقَـــولُ لأصْـــحابي ارْفعـــوني لأنّنـــي ... يَقِـــرّ بِعَيْنَـــي أن ســـهَيل بَـــدَا لِيـــا

ثم يهيأ نفسه ليواجه سلطة الموت الغالبة، قائلاً:

وَقومـــا، إذا مـــا اســـتُلّ روحـــي، فهيّئـــا ... لـــيَ القبـــرَ والأكفـــانَ، ثُـــمّ ابكيـــا ليـــا
وخُطّـــا بـــأطْرَافِ الأسِـــنّةِ مضـــجعي ... ورُدّا علـــى عَيْنَـــيَّ فضـــلَ ردائيـــا
ولا تحسُـــداني، بـــارِكَ اللَّهُ فيكمـــا ... من الأرْضِ ذَاتِ العَرضِ أن توسِعا ليا
خُـــذَاني، فجُرّانـــي بِبُـــردي إليكمـــا ... فقـد كُنْـتُ، قبـل اليـوم، صَـعباً قياديـا
فقـد كنـتُ عطّافـاً، إذا الخيـلُ أدْبَـرَتْ ... سَريعاً لدى الهَيْجا، إلى مَن دعانِيا[20]

يلتمس الشاعر من صاحبيه أن يحفرا قبره بأطراف الأسنة ،وفي قوله هذا نصا مضمرا فشجاعته وقوته لابدّ ان تتوافق مع مضجعه الاخير المعدّ بإحدى ادوات الفارس المقاتل وهي الأسنة .

ويأتي صراع (المكان- الزمان) عبر التماس الشاعر من صاحبيه توسعة قبره وألا يبخلا عليه بذلك، فالمكان الماضي كان ضيقا خاليا من الألفة والحرية التي أرادها، لذا؛ حاول تعويضها بعد الموت، وهو صراع وجودي إنساني، فسعة القبر لا تنفع من مات وقبر إلا أنها تحقق له ما أخفق في الحصول عليه في الحياة الدنيا، ويمثّل قوله:

خُذَاني، فجُرّاني بِبُردي إليكما ... فقد كُنْتُ، قبل اليوم، صَعباً قياديا
فقد كنتُ عطّافاً، إذا الخيلُ أدْبَرَتْ ... سَريعاً لدى الهَيْجا، إلى مَن دعانِيا

نسقا ضديا ضد (انا) الشاعر المتعالية المتسمة بالعلو والرفعة ، فالموت قهر تلك (الانا) وزعزع قوتها ، فاذا بها جثة هامدة تجر الى القبر جرّا ، بعد ما كانت تقهر بوجودها الاعداء .

ثانيا: الأنساق الضدية على المستوى الفني

1- الثنائيات الضدية: تمثل الثنائيات الضدية ظاهرة طبيعية في الشعر العربي فالشعر يعد وعاءً للصراعات المختلفة ،ويحاول الشاعر ان يتمثل هذه الصراعات في شعره ،اي ان هذه الثنائيات تمثل موقفا واعياً لإحساسه بالتفكك والصراع تجاه مجريات حياته، لذا يحاول قدر الامكان الاحاطة بها وتمثيلها في شعره فتظهر على شكل انساق متضادة وهذه الثنائيات تعد ((مكونا مهما من مكونات الخطاب الشعري، وبنية مركزية فاعلة تنكشف عبر وظيفتها انماط الانساق المتضادة داخل الخطاب ،اذ تتحد الضديات عند الشاعر لخلق تصورات معينة تجاه الحياة والكون))[21]، فرحلة الشاعر وصراعه مع سياسة بني امية وقيم المجتمع وموقف- المجتمع- المنحاز للثابت ولّد صراعا في نفس الشاعر تجاه مجريات حياته، حاول الخروج منه عبر رؤى متضادة مع رؤى الآخر محاولا ايجاد بديل لما يعانيه من ازمات، فاذا به ينتقل ما بين الأمل واليأس ،والماضي والحاضر، والحلم والواقع، والحياة والموت، استطاع عبر هذا الصراع رسم صورة ورؤية واضحة لحياته التي عاشها في ظل سياسة بني امية، ولعل خير ما يمثل هذه الثنائيات الضدية وتحولات النسق لديه قصيدته التي قالها في رثاء نفسه:

أَلا لَيتَ شِعري هَل أَبيتَنّ لَيلَةً بِجَنبِ الغَضا أُزجي القَلاصَ النَواجِيا
فَلَيتَ الغَضا لَم يَقطَعِ الرَكبُ عرضه وَلَيتَ الغَضا ماشى الرِّكابَ لَيالِيا
وَلَيتَ الغَضا يَومَ اِرتَحلنا تَقاصَرَت بِطولِ الغَضا حَتّى أَرى مَن وَرائِيا
لَقَد كانَ في أَهلِ الغَضا لَو دَنا الغَضا مَزارٌ وَلَكِنَّ الغَضا لَيسَ دانِيا
أَلَم تَرَني بِعتُ الضَلالَةَ بِالهُدى وَأَصبَحتُ في جَيشِ اِبنِ عَفّانَ غازِيا
وَأَصبَحتُ في أَرضِ الأَعادِيّ بَعدَما أَرانِيَ عَن أَرضِ الأَعادِيّ نائِيا

يبنى النص على ثنائية الماضي- الحاضر، الامل –اليأس، الحياة – الموت، الضلالة – الهدى، ان اقتراب اجل الشاعر في دار غربة ،ولّد لديه شعورا نفسيا عميقا بالغربة والحنين الى الوطن الى ذلك المكان الذي شكّل لوقت قريب نسقا ضدياً ، واذا به يتحول الى نسق محبب ورغبة

جامحة بالعودة اليه، ويبرز في النص ثنائية ضدية مثّلت ركيزة مهيمنة ومحوراً مهماً وانقلاباً واضحا في حياة الشاعر وهي (الضلالة- الهدى) مشيرا الى تبدل في نسقه الاول فالضلالة تعني (اللصوصية)التي مثلت رغبته الملحة في كسر الثابت في المجتمع ،نحو (الهدى) وهو الجهاد المحبب الى نفسه الشجاعة، فرجحت كفة الهدى على الضلالة بدلالة قوله (بعت) و(اصبحت في جيش بن عفان غازيا).

ثم يستطرد في كلامه مؤكداً ان الموت محقق لا مفر منه، وهو ما تجلى في قوله :

فَللّـــهِ درّي يَـــومَ أتـــركُ طائِعـــاً بَنِـــيَّ بِأعلـــى الرَقمَتَيـــنِ وَمالِيـــا
وَدَرُّ الظبـــاءِ السانِحـــاتِ عَشِيَّـــة يُخَبِّـــرنَ أنّـــي هالِـــكٌ مِـــن وَرائِيـــا

تتحقق في النص ثنائية الامل- اليأس ،الماضي –الحاضر، فالزمن الماضي زمن تمثل فيه الامل بشكل جلي وان كان فيه الشاعر متخبطا وغير مستقر ،الا ان شعوره بالحياة وان هنالك فرصة بالرجوع الى موطنه والعيش مع اهله وسّع لديه دائرة الامل، اما الحاضر فهو الحقيقة المؤلمة فصراع الشاعر مع الموت حقيقة لا مفر منها ، ويأخذه هذا الصراع الى صورة مؤلمة برزت بها ثنائية(الماضي – الحاضر)و (القوة – الضعف) بشكل جلي ،اذ قال لأصحابه:

خُـــذاني، فجُرّانـــي بِبُـــردي إليكمـــا فَقَـد كُنـتُ قَبـلَ اليَـومِ صَعبـاً قيادِيـا
وَقَـد كُنـتُ عَطّافـاً إذا الخَيـلُ أدبَـرَت سَـريعاً لَـدى الهَيجـا إلـى مَـن دَعانِيـا

فالتضاد واضح في قوله :(خذاني فجراني) وقوله:(كنت قبل اليوم صعبا قياديا)، فالموت مثّل ضعف الشاعر واصبح سهل القياد ،مقابلا هذه الصورة بصورته في الماضي حينما كان فارسا شجاعا قائدا لا منقاداً.

2- **الصورة التنافرية:** يسعى الشاعر الى اختراق الانساق المألوفة وذلك بانتهاك علاقة الدال بالمدلول، فالشاعر يحدث انزياحاً في اللغة حتى يستطيع مجابهة الانساق الجمعية التي سبق ورفضها، لأنها لا تتوافق ورؤيته الخاصة تجاه الاشياء والوجود، فالصورة التنافرية تشكل

نظاما من الترابطات في افق غير متوقع[22]، و((تعد حيلة ادبية توظف بشكل واضح فكرة التضاد والتناقض paradox لاسيما في الشعر))[23]، وتعتمد على قانون الاستبدال الاستعاري وظهور التنافر بين الدال والمدلول لذا قال كوهن: ((ونحن نميز ،بالتالي بين درجتين في الاستعارة، ونميز تبعا لذلك، بين درجتين من المنافرة، وذلك بحسب العلاقة بين المدلولين.. ،وهكذا فان المنافرة تكون من الدرجة الاولى ،اذا كانت العلاقة داخلية، وتكون من الدرجة الثانية، اذا كانت العلاقة خارجية))[24] ،ومن امثلتها في شعر مالك بن الريب، قوله:

تَـذَكّرْتُ مـن يَبْكـي علـيّ، فلـمْ أَجِـدْ سِوَى السَيْفِ والرّمحِ الرُّدَينيّ باكيا

يخبأ النص الم الشاعر وضعفه وحاجته الماسة الى اهله واصحابه، فسلطان الموت قوي ومخيف يسعى الانسان جاهدا ان لا يواجهه وحده واذا بالشاعر يجابه قدره وحيدا في دار غربة، فلم يحزن عليه الا سيفه ورمحه ،سلاحه الذي طالما تحدى به الآخرين رافضا لنسقهم متحديا لسلطتهم وقوتهم به، وهذا يعد انزياحاً في اصل اللغة فتوظيف الاستعارة المكنية ادى الى ان تفقد هذه الادوات دلالتها على الشيء الجامد، وايضا فقد الانسان جزءا من دلالته وهي البكاء على الميت لتنشأ دلالة جديدة اوجدها الشاعر ،كاشفاً بها عن نسقه المضمر ،ليحاول بذلك ايجاد توازن داخلي يكون بديلا عما افتقده في الخارج.

ومنها ايضا قوله:

دعـاني الهـوى مـن أهـل أودَ وصُـحبتي بـــذي (الطِّبَّسَـــيْنِ) فالتفـــتُّ ورائيـــا

أجبـــتُ الهـــوى لمّـــا دعـــاني بزفـــرةٍ تقنّعـــــتُ منهـــــا أن ألامَ ردائيـــــا[25]

يخفي النص نصاً مضمراً كشفت الصورة التنافرية جانباً منه، فالم الفراق والشوق ادى به الى توظيف الاستعارة المكنية مشبهاً الهوى بالإنسان المتكلم المنادي للمحب بشوق ولهفة ، ومن ناحية اخرى شبه (الزفرة) بالقول الممكن الاجابة به، استطاع الشاعر ان ينتقي الكلمات الملائمة

للموضوع ويستبدلها بكلمات اخرى وينسق بينها على وفق علاقات معينة، لتتلاءم وحالته النفسية التي عاشها، ولتكشف عن نسقه الخاص عن طريق التنافر في السياق العام.

الخاتمة

بعد قراءتنا لنصوص مالك بن الريب وتحليلها على وفق الدراسات الثقافية ،نستطيع ان نوجز بعضاً مما خلصت اليه الدراسة وهي كالآتي:

- يشمل النسق الثقافي النظم الاجتماعية والدينية والثقافية المتفاعلة فيما بينها والتي يكتسبها الانسان في مجتمع ما ، وهي ذات صلة وثيقة في إنتاج اي خطاب ابداعي كان أو فكري.

- ان رؤية الشاعر وثقافته تصادمت مع رؤية وثقافة المجتمع مما ادى إلى نشوء انساق متضادة تمثلت عبر صراعه مع الآخر متمثلاً بالسلطة فنشأت عنها جدلية الهامش والمركز .

- انقسمت الانساق الضدية في شعر مالك بن الريب الى قسمين القسم الاول: تمثل بالانساق الضدية على المستوى الموضوعي ،والتي نشأ عنها صراع الانا مع قيم المجتمع ،ومع المكان والزمان متمثلا بالموت، اما القسم الثاني: فقد تمثل بالانساق الضدية على المستوى الفني ،نشأ عنها ثنائيات ضدية تمثلت بالموت والحياة ،والماضي والحاضر، والامل واليأس، والحضور والغياب وغيرها، وايضا نشأ عنها الصورة التنافرية اذ وظف الشاعر الاستعارة المكنية ليوجد حالة من التوازن بين الداخل والخارج .

- مثلت هذه الثنائيات موقفا واعياً لإحساس الشاعر بالتفكك والصراع تجاه مجريات حياته، لذا حاول قدر الامكان الاحاطة بها وتمثيلها في شعره فظهرت على شكل انساق متضادة.

المصادر

[1] - ينظر :جدلية الانساق الثقافية المضمرة في النقد الثقافي، سحر كاظم الشجيري، دار الحوار، سوريا، ط1 ،2017م: 75.

[2] -ينظر: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، ،علوش سعيد، دار الكتاب اللبناني ،الدار البيضاء، ط1، 1985: 211

[3] - ينظر: تأويل الثقافات ،كليفورد غيرتس ،ت: محمد بدوي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1،2009م :221.

[4] - محاضرات في علم اللسان العام ، فرديناند دي سوسير ، تر: عبد القادر قنيني، افريقيا الشرق ، المغرب ،2008 : 31.

[5] - عصر البنيوية من ليفي شتراوس الى فوكو ،تأليف : أديث كيروزيل ، تر: جابر عصفور ، دار افاق عربية للصحافة والطباعة النشر، بغداد ، د.ط ،1985 : 291

[6] - ينظر: النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية، عبد الله الغذامي، المركز الثقافي ،المغرب، ط6، 2014م: 76.

[7] - ينظر: م.ن: 79.

[8] - ينظر: تداخل الأنساق الثقافية في كتاب الاغاني "رسالة ماجستير" ، رائد حاكم شرار الكعبي ، جامعة بابل ، كلية التربية للعلوم الانسانية ، 2013م: 7

[9]- ينظر: النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية:77-78.

[10]- شعراء أمويون، د. نوري حمودي القيسي، مطبعة المجمع العلمي العراقي،بغداد،ط1:1976،51/1.

[11]- شعر اللصوص في العصر الاموي في ضوء البنيوية التكوينية، بشائر امير عبد السادة، اطروحة دكتوراه ،كلية التربية للعلوم الانسانية ،جامعة بابل، 2013م: 110.

[12] - النص الهجائي وخطاب الانساق في شعر شعراء الطبقة الثانية عند ابن سلام الجمحي ،د. جنان محمد عبد الجليل، وسعد سامي محمد، مجلة حولية المنتدى ،العدد التخصصي التاسع ،الدراسات اللغوية والادبية، كانون الاول، 2016م : 238.

[13] - ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي، د. محمد نبيل طريفي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م: 2/171-172 ،التأنان: الانين.

[14] - ديوان مالك الريب حياته وشعره، تح:د. نوري حمودي القيسي، مستل من مجلة معهد المخطوطات العربية،مج15،ج1 :75-76،الصرار:مايشد فوق خلف الناقة من خيط، والنص: الاستحثاث الشديد، والعنس :الناقة القوية، والأنياب :جمع الناب وهي الناقة المسنة، والكمي :الفارس الشاكي السلاح.

[15] - التهميش والمهمشون في المدينة العربية المعاصرة ،عمر الزعفوري،مجلة عالم الفكر،مج36،ع2008،4م: 189.

[16] - شعراء امويون: 1 /40.

[17] - الانساق الضدية في شعر تأبط شراً، م.د. آلاء محمد لازم، مجلة العميد مجلة فصلية محكمة، م2، ع3-4، تشرين الثاني،2012م:298.

[18] - ديوان مالك بن الريب: 82.

[19] - ديوان اللصوص في العصرين الجاهلي والإسلامي:2/164.

[20] - ديوان مالك بن الريب: 89-91.

[21] - جماليات التحليل الثقافي: 229.

[22] - ينظر: اراءة التأويل ومدارج معنى الشعر، عبد القادر فيدوح: 177

[23] - جماليات التحليل الثقافي، الشعر الجاهلي نموذجاً، د. يوسف عليمات، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت، ط1، 2004م :319

[24] - بنية اللغة الشعرية، جان كوهن ،تر: محمد الولي، ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1986م :124-125.

[25] - ديوان مالك بن الريب:89.